الاستلزام الحواري في كلام الأعراب

الباحثة هدى راضي حمد

أ.م.د جاسم خيري الحلفي

جامعة ميسان / كلية التربية

المديرية العامة لتربية ميسان

الملخص :

محور هذه الدراسة يدور حول كلام الأعراب حيث عُرف كلام الأعراب بالفصاحة والبلاغة، وطالما كان موضع اهتمام اللغويين والنقاد والأدباء، وقد تناولت هذه الدراسة الاستلزام الحواري في كلامهم، وتم تطبيق الخروقات الأربعة على نصوص مختارة من كلامهم، وهذه الخروقات متأتية من الخروج عن قواعد التأدب التي نصها غرايس، وهذه الخروقات هي: (خرق قاعدة الكم، وخرق قاعدة الكيف، وخرق قاعدة الملاءمة، وخرق قاعدة الطريقة) فقد كانت هذه الخروقات حاضرة في كلامهم على الرغم من عدم وعيهم بها لكن كانت تجري على السنتهم بالسليقة وكان لبلاغتهم الدور في تشكيل هذه الخروقات.

Abstract

The focus of this study revolves around the words of the Bedouins, where the words of the Bedouins are known for their eloquence and eloquence, and they have always been the subject of interest for linguists, critics, and writers. Grace wrote it, and these violations are: (Breaching the rule of quantity, breaching the rule of quality, breaching the rule of adequacy, and breaching the rule of method).

الاستلزام الحواري

مقدمة:

ويقصد بالاستلزام الحواري أنه "عمل المعنى أو لزوم شيء عن طريق قول شيء آخر، أو قل: إنه شيء يعينه المتكلم ويوحي به ويقترحه ولا يكون جزءاً مما تعينه الجملة بصورة حرفية"(١).

إن مصطلح الاستلزام الحواري "مصطلح لساني مركّبٌ من لفظين: الاستلزام، وهو الاسم والحواري وهو صفة هذا الاسم يحملُ معنىً مركباً خلاصته هي: أنّ هناكَ عمليةً عقليةً تسعى إلى فهم معنى الحوار عن طريق العبور من المعنى الظاهر إلى معنى ثانٍ ملازم للمعنى الأول يقصده المتكلم والدليلُ عليه عدمُ الالتزام بقواعد الحوار أو بإحداها فهناك معنيان: لازم وملزوم [...] إذ لا يمكن أنْ يتحّقق الاستلزام إلا بالمعنيين معاً، وغاية الاستلزام هي السّعي للأمساك بذلك المعنى غير المباشر"(٢).

وهذا النوع يختلف عن الأول كونه يتغير بتغير السياق، والتراكيب التي يرد فيها، ويقوم هذا الاستلزام على خرق مبدأ أو أكثر من مبادئ التعاون التي أقرها غرايس وهي: (مبدأ الكم – والكيف – والملاءمة – والطريقة)، ولهذا الاستلزام خصائص تميزه عن أنواع الاستلزام الأخرى وهي(٣):

١) الاستلزام الحواري يمكن إلغاؤه، حيث يمكن لمرسل الخطاب أن يضيف كلاماً إلى كلامه السابق، فيلغي الاستلزام أو إنه يحول دون ذلك، فإذا قال أحدهم لشاعر مثلاً: لم أقرأ كل قصائدك، فهذا الكلام يستلزم أنه قد قرأ بعض قصائده ولكن اذا أعقب كلامه بقوله، والحق أني لم أقرأ أي قصيدة منها فهنا قد ألغى الاستلزام تماماً بعد أن أردف كلامه المستلزم بآخر صريح.

٢) الاستلزام لا يمكن أن ينفصل عن المحتوى الدلالي، فغرايس يرى أن الاستلزام متصل بالدلالة، لا بالصيغة اللغوية التي قيل بها، فلا ضير إذا استعمل المتكلم عبارات وكلمات مرادفة فلا ينقطع الاستلزام، والحوار الآتي بين الأخوين يوضح ذلك:

أ- لا أريدكَ أن تتسلل إلى غرفتي هكذا.

ب-أنا لا أتسلل، ولكن أمشي على أطراف أصابعي خشية أن أحدث ضوضاء.

فعلى الرغم من تغير الصياغة في قول (ب) فإن ما يستلزمه القول من عدم الرضا عن هذا السلوك لا يزال قائماً.

٣) يتميز الاستلزام بأنه متغير إذ إن التعبير الواحد يمكن أن يتغير مدلوله حسب السياق الذي يرد فيه، وفي كل سياق هناك استلزام مختلف، فمثلاً صيغة (كم عمرك) في دلالتها الأصلية طلب معرفة العمر أما إذا سألت هذا السؤال إلى صبيّ بعمر خمسة عشر عاماً فقد يستلزم السؤال مؤاخذة له على نوع من السلوك غير اللائق، وإذ سألت هذا السؤال لفتى يمنع من اتخاذ قرار لا يخرج عن تعاليم الدين، ومواصفات الأخلاق، والأعراف فقد يعني ذلك أنه من النضج بحيث يستطيع أن يتخذ قراره،

يتحمل عواقبه، وأيضاً إذا قال أحدهم، وقد سُرِقَ في يوم العيد (هذه أفضل هدية)، فهو يقصد منها خيبته وضجره، أما إذا قالها رجل تلقى رسالة من شخص يحبه، أو طالب بشر بنجاحه في يوم العيد، فإنها تستلزم الفرح والسعادة والاستئناس.

٤) الاستلزام يمكن تقديره، أي إن المتلقي يقوم بعمليات ذهنية يتوصل بها بخطوة نحو المعنى المستلزم ويقدر، المعنى حسب ما يفهم من القرنية، والسياق الذي ترد فيه العبارات المستلزمة لكن هذه العمليات تحدث سريعاً، ويتوصل المتلقي إلى المعنى المستلزم في وقت قصير، ومثال ذلك يقول المرسل: الملكة فكتوريا صُنعِت من حديد، فإن القرينة تبعد المتلقي عن قبول المعنى الحقيقي لهذه العبارة، وهي أن الملكة مصنوعة من حديد، فيلجأ إلى البحث وراء الكلام من معنى فيقول في نفسه: لابد أنه يريد معنى آخر، وهو أن يخلع على الملكة بعض الصفات كالصلابة والمتانة وقوة التحمل والصبر، فبذلك قدر المتلقي الاستلزام تقديراً ذهنياً.

١) خرق قاعدة الكم

وفق هذه القاعدة يتوجب على مرسل الخطاب أن يكون كلامه مفيداً وكافياً لا ينقصه ما يبلغه القصد، ولا مطولاً يزيد عن إفهام القصد [٤] أي إنّ مرسل الخطاب يُبلغ قصده بمعلومات كافية لا تزيد ولا تنقص، حيث يُفهم المتلقي دون أن يقع في لبس، ومن خطاب الأعراب التي خُرقت فيها قاعدة.

- خرق قاعدة (الكم) بإعطاء قدر أكبر من المعلومات:

من ذلك قول اعرابية وقد سُئلت عن الهوى "**فقالت: لا مُتع الهوى بملكه، ولا مُلِّى بسلطانه، وقبض الله يدهَ، وأوْهَن عَضُده، فإنه جائر لا ينصف في حكم، أعمى ما ينطقُ بعدل، ولا يقصر في ظلم، ولا يَرعَوى لِلَوم، ولا ينقادُ لحقّ، ولا يبقى على عقل ولافهم، لو ملك الهوى وأطيع لرد الأمورَ على أدبارها، والدنيا على أعقابها**"[٥].

الأعرابيّة في هذا الخطاب لمحت لأمر واحد وهو أن الهوى سيء، وقد أجابت بأوصاف كثيرة عن طريق دعائها أو تحذيرها من اتباع الهوى أو انتقاد الهوى، حيث بدأت كلامها بالدعاء على الهوى بقولها (لا مُتّع الهوى بملكه ولا مُلى بسلطانه، وقبض الله يده وأوهن عضده)، ثم تعلل سبب هذا الدعاء بوصفه بعدة صفات وهي: (جائر، أعمى، ظالم، لوام، لا يعرف الحق، يذهب بالعقل) بقولها (فإنه جائر لا ينصف حكم، وأعمى ما ينطق بعدل، ولا يقصر في ظلم، ولا يرعوى للوم، ولا ينقاد لحق، ولا يبقى على عقل ولا فهم) ثم تكمل كلامها بذكر عواقب إطاعة الهوى بقولها (لو ملك الهوى، وأطيع لرد الأمور على أدبارها، والدنيا على أعقابها)، وفي هذا الكلام يلمح الأعرابيّة إلى مدى خطر الهوى وأن متبع الهوى لا يظفر بشيء حسن وإنما ينال كل ما هو سيء، وقد عللت وأسهبت وأسرفت في هذه الكمية من المعلومات كي تدلل على أن الهوى سيء.

وفي نصّ آخر قيل لأعرابي: " **هل تُحدِّثُ نَفسَكَ بدخول الجنَّة؟ قال: واللهِ ما شَكَكْتُ قطُّ أنّي سوفَ أخطو في رياضها، وأشربُ من حياضها، وأستظلُّ بأشجارها، وآكل من ثمارها، وأتَفَيَّأ بظلالها، وأتَرشف من قلالها، وأستمتعُ بحُورها في غُرفها وقصورها، قيلَ له: أفَبحَسنَةٍ قدَّمْتَها أم بصالحةٍ أسلفتها؟ قال: وأيّ حسنةٍ أعلى شرفاً، وأعظمُ خَطَراً من إيماني بالله تعالى، وجُحُودي لكلِّ معبودٍ سوى الله تبارك وتعالى، قيلَ له: أفلا تخشى الذُّنوب؟ قال: خَلقَ الله المغفرةَ للذنُوب، والرحمةَ للخطأ، والعفوَ للجُرْم، وهو أكرمُ منْ أنْ يعذِّبَ مُحِّبيه في نار جَهنَّم، فكانَ الناسُ في مسجدِ البَصْرة يقولون: لقد حَسُنَ ظنُّ الأعرابيّ بربه**"[٦].

فالأعرابيّ هنا خرق قاعدة الكم من خلال الوصف المفصل للجنة، وكيف ينعم بها فالسؤال لا يتطلب كل هذا الكم من المعلومات فكان من المفترض أن يجيب بجواب من قبيل: نعم أحدث نفسي بدخول الجنة، لكنه خرق القاعدة وتجاوزها إلى وصفه الجنة، وكيف يتمتع برياضها، وحياضها، وأشجارها، وقصورها ... الخ، وقد بادروه بسؤال آخر، ويكرر نفس الخرق أيدخل الجنة بحسنة أو صالحة، وكان من المفترض أن يوجز الجواب ويسكت لكن الأعرابيّ أخذ يشرح، ويفصل عن الحسنة التي يرجو بها دخول الجنة، ألا وهي حسن إيمانه بالله تعالى وكفره بباقي المعبودات بقوله (وأي حسنة أعلى شرفاً وأعظم خطراً من إيماني بالله وجحودي لكلّ معبود)، وفي السؤال الآخر الذي وجه للأعرابي عن خشيته من الذنوب، فهو لم يجب على قدره أيضاً إذ نجده يشرح ويفصل الحديث عن رحمة عن الله وعفوه وغفرانه للذنوب، والخطايا، والكرم الذي يقابل به الله سبحانه وتعالى عباده، فمن هذه التفاصيل التي ذكرها الأعرابيّ عن كل سؤال وجه اليه من هذه الاسئلة الثلاثة أراد أن يلمح إلى شيء، ووجد أن التصريح به مباشرة لا يفي بالغرض، ولا يبلغ القصد كما يريد أن يبلغه لمتلقي الخطاب، فعند سؤاله عن هل نفسه تحدثه بدخول الجنة أراد أن يبين من صفه الجنة، وكيف يتمتع بها، ويبين مدى يقينه بدخول الجنة وأنه يتصورها، وليس فقط يظن أنه سيدخل الجنة، وعند سؤاله من أنه هل يدخل بحسنة أم صالحة فقد ذكر توحيده لله، وكيف فضله على كل آله ومن أراد أنْ يبين أن هذه حسنة كبيرة، ولها الفضل عند الله، ويمكن أن تدخله الجنة، وعند سؤاله عن خشيته من الذنوب أراد أنْ يوضح عفو ورحمة الله الكبيرة ورأفته بعباده فقد أتخذ من التلميح طريقاً لبيان هذا كله.

وفي نصّ آخر : " **الأصمعي قال: قال مُعاوية يوماً لجلسائه: أيّ الناس أفصح؟ فقال رجلٌ من السِّماط: يا أمير المؤمنين، قوم قد ارتفعوا عن رُتَّة العراق، وتياسروا عن كَشْكشة بكر، وتيامَنُوا عن شَنْشَنة تَغْلب، ليس فيهم غَمْغمة قُضاعة، ولا طُمطانية حِمير، قال: من هم؟ قال: قومك يا أمير المؤمنين قُريش، قال: صَدقتَ، فمن أنت؟ قال: من جَرم، قال الأصمعي: جرم فُصْحى الناس** "[٧].

الأعرابيّ هنا كان يجب عليه وفق قواعد التعاون أنْ يكتفي بتعيين الأفصح وهم قريش لكنه أضاف إلى ذلك الكثير من المعلومات التي يبين بها لسان القبائل الأخرى، ولعل الأعرابيّ فعل ذلك ليبين مدى فصاحة لسان قريش، وأراد أن يبين أن لغتهم لا تشوبها كشكشة، ولا شْنشنة، ولا طمطمانية، ولا غمغمة فلجأ إلى التلميح،

لأنه عن طريق التلميح، وخرقه لقاعدة الكم، وعدم الأكتفاء بالتصريح، والالتزام بقواعد التعاون بين درجة الفصاحة التي في لغة قريش، فيريد أنْ يقول هي لغة فاقت، وترفعت عن كل اللغات التي تجاورها.

وفي نصّ آخر: " **قيلَ لزَهراء الأعرابيّة: أينَ منزلُكِ؟ قالت: مالي منزل، إنما أشتمل الليلَ إذا عسْعَس، وأظهُر في الصبح إذا تَنَفَّس، ثم اتخذت منزلاً فقيلَ لها: كم بيننا وبين منزلك؟ فقالت :**

فأما على كسلانَ وانٍ فساعةٌ وأما على ذي حاجةٍ فقريبُ"(٨)

عندما سُئلت الأعرابيّة عن منزلها أجابت مالي منزل، وكان من المفترض أنْ تسكت لكنها أكملت ولم تلتزم بقاعدة الكم، فقد أكملت بقولها (إنما أشتملُ الليل إذا عسعس وأظهرُ في الصبح إذا تنفس) أي إنها تتستر في ظلام الليل، لأنها لا تملك منزلاً تلجأ اليه، وتظهر صباحاً إذا أشرقت الشمس، وعندما أصبح لها منزل وسُئلت أين هو فلم تجب عن مكانه بصورة محددة وواضحة لكنها بينت أنه قريب على من يحتاجها، وبعيد عن من ليس لديه حاجة عندها، فقد بينت من هذا كله أنها تعيش بمفردها، وليس لديها منزل، أرادت أن تقول في النهاية إن منزلها بعيد، ولكنه ليس بذاك البعد لمن يحتاج الوصول إليه وبه رغبة إليه.

- الخرق بإعطاء معلومات أقل:

قد يكون الخرق بإعطاء مرسل الخطاب معلومات قليلة لا تتناسب، ولا تفي بإيصال الغرض المطلوب أو الغاية من الخطاب، ومن ذلك ما جاء في كلام الأعراب: إذ قيل لأعرابّي "**ما أعددتَ للشّتاءِ؟ قال: شدَّة الرِّعدة**"(٩).

الأعرابيّ أجاب بقدر قليل من المعلومات ليس بالقدر المطلوب للإجابة على السؤال إذ يتطلب منه معلومات أكثر لكنه اكتفى بعبارة (شدَّة الرِّعدة) أيّ إنه لم يتجهز للشتاء ولم يعد له أيّ شيء.

وفي نصّ آخر: "**قيل لأعرابّي: ما وراءَك؟ قال: خَلّفتُ أرضاً تَظَالمُ* مِعْزاها**"(١٠).

خرق الأعرابيّ في الإجابة قاعدة الكم إذ قدم معلومات قليلة، ولا تفي لتكون الجواب المناسب للسؤال إذ يحتاج الجواب الكثير من التفصيل، لكن الأعرابيّ على الأرجح أراد أن يختصر الإجابة بعبارة (خَلّفتُ أرضاً تَظالمُ مِعْزاها) لأنه يجدها تختصر كل ما يريد قوله، ويبعده عن الإطاحة والإسهاب، وفي قوله هذا أراد أن يقول إنه خلف وراءه أرضاً ذات خيرات كثيرة إذ إن معازها سمنت وتناطحت لأنها تتمتع بالسمنة والنشاط.

وفي نصٍّ آخر بين أعرابي وزوجته: " **قال أعرابي لأهله: أين بَلَغتْ قِدْرُكم؟ قالت قام خطيبها**"(١١).

الجواب من الأعرابيّة (قام خطيبها) تريد به أنها تغلي، وقد أوشكت على الاكتمال، فهنا يفترض بالمتلقي أن يعتمد على المعلومات السابقة، ويربطها بالسياق الحالي كي يفهم المقصود من هذا الاختراق.

فمن الأمثلة السابقة نلحظ أن إجابات الأعراب كانت بعبارات قصيرة، وموجزة ولعل السبب في ذلك يعود إلى طبيعة الحديث آنذاك الذي يتصف بالإيجاز أو قد يكون السؤال حسب وجهة نظر المسؤول لا يحتاج الإجابة بصورة مفصلة، أو الإطالة، فيعمد إلى الإجابة بصورة قصيرة وموجزة منتهكاً بذلك قاعدة الكم مما يدعو المتلقي للاستعانة بالسياق، والمعلومات السابقة التي توصله إلى ما يريده المتكلم؛ لهذا يكون الاستدلال معقداً في الاستلزام الحواري [١٢].

٢) خرق قاعدة الكيف :

الخرق لهذه القاعدة هو أن يقول المتكلم كلاماً غير مطابق للواقع أو يحتاج إلى دليل، لان القاعدة تنص على أن يكون الكلام صادقاً مطابقاً للواقع [١٣]، فمرسل الخطاب هنا يخاطب عقل، ومخيلة متلقي الخطاب في الوقت نفسه، إذ إنه يرسم صورة غير حقيقية في ذهن المتلقي لأن الخيال نشاط لغوي يبتعد عن الحقيقية، إن التداولية أحد أعمدتها تقوم على الصدق، والرغبة الجادة من المتكلم، والكلام إذا خرج من الحقيقية إلى الخيال فلا يطابق الواقع، ولا يهم هذا التداوليين كثيراً فلا يمكن للخيال أن يكون صادقاً، وحقيقياً على أرض الواقع، وقد واجهت التداولية صعوبة عند تعرضها لدراسة الكذب، والتخييل إذ توجب عليها كما يتوجب على كل نظرية تدرس الاستعمال اللغوي أن تتمكن من وصف ما يحدث من كذب باللغة اليومية وهو يحدث كثيراً يومياً[١٤].

وقد حفل كلام الأعراب من الكلام والخطابات التي تخرج عن الحقيقية إلى الخيال، وتعد كذباً وتخرق قاعدة الكيف فقد ورد من كلامهم " **قيل لأعرابي ما السُّرورُ؟ قال: كثرةُ المال، وقِلَّةُ العيال**"[١٥].

قدم الأعرابيّ في جوابه عن السؤال معلومات كافية ومناسبة بالنسبة له، لكنه خرق قاعدة الكيف حيث وصفه ب(كثيرة المال، وقلة العيال) فلم يقدم جواباً يبين به كيف تكون السعادة (بكثرة المال وقلة العيال) فهذا الكلام غير مطابق للواقع، وقد يحتاج إلى دليل ليدل على كلامه ولعله من خلال هذا أراد أن يلمح إلى أن المال الكثير في بعض الأحيان يخلق السعادة إذا لم يلازمه الكثير من العيال التي تحتاج إلى أنفاق هذا المال ولعله أراد أن يقول إنه يوفر المال لأجل إسعاده في ملذات أخرى غير الإنفاق على العيال فوجد من الإيجاز بهذه العبارات ما يؤدي غرضه.

وفي نصّ آخر "**سَمِع أعرابّي رجلا يُنشد شعراً لنفسه، فقال: كيف تَرى؟ قال: سُكَر لا حَلاوةَ لهَ**"[١٦].

فالأعرابيّ هنا أجاب إجابة خرق بها قاعدة الكيف حيث أجاب بقوله: (سكر لا حلاوة له)، فهذا يحتاج إلى دليل عليه، وقد يعتقد أنه كاذب لا شك، فالشعر لا يمكن أن يكون سكر، ومن ناحية أخرى لا يمكن أن يكون السكر من دون حلاوة فقد جمع بين نقيضين وجود السكر مع الافتقار للحلاوة، والأعرابيّ أراد من خلال هذا الخرق أن يوصل مقصداً لا يمكن للحقيقية أن توصله مثل ما يصل عن طريق الخيال، فهو يريد أن يقول للرجل أن شعره بما يتصف به الشعر من شكل (وزن، وقافية) وتركيب وغير ذلك، لكنه يفتقر لما يتطلبه الشعر من الخيال والتأثير فهو سكر لكن يفتقر للذوق الذي عبر عنه بالحلاوة، فالسكر بحد ذاته حسن لكن إذ لم يشعر

متذوقه بطعمه لا خير فيه كذلك هو شعره فهو جميل لكن يقوله لنفسه، فلا يشعر بشيء من الجمال أو الإحساس بما يقوله وقد استعان بالتلميح وفضله على التصريح واتخذ من خرق هذه القاعدة سبيلاً ليبين له رأيه الواضح بشعره.

وفي نصٍّ آخر " **قيل لأعرابي: ما أصبركم على البدو! قال: كيف لا يصبر من طعامه الشمس، وشرابه الريح، لقد خرجنا في إثر قوم قد تقدمونا بمراحل، ونحن حفاة، والشمس في قُلّة السماء، حيث انتعلَ كل شيء ظله، وما زادنا إلا التوكل ، وما مطايانا إلا الأرجل حتى لحقنا بهم**"(١٧).

جواب الأعرابيّ خارج عن المنطق، ولا يمت للواقع بصلة فلا يمكن للشمس أن تكون طعاماً، والريح شراب، ولا يمكن للظل أن يكون نعلاً، وليس كل شيء ينتعل الظلّ، والقصد من هذا هو أن البدو اعتادوا على حياة البادية، والصحراء حيث اعتادوا على الشمس كأنها طعامهم، وكأن الريح شرابهم، كما اعتادوا على الاكلُ والشرب، وهم سلكوا ولساروا وعاشوا كما عاش الذين قبلهم، ويريد إن يقول أن الشمس في ذروتها وفي منتصف السماء ونحن معتادون أن نمشي في حرارتها حفاة ويريد أن يقول إن من شدة الحرارة كل شيء صار له ظل ونحن متوكلون على الله، وفي قوله (وما مطايانا إلا الأرجل) يريد إنه يقول أن ليس لدينا ما نمتطيه ليحملنا غير أرجلنا، فاستخدم هذه العبارة وغيرها التي أنتهك بها القاعدة، فلا يمكن أن تكون الرجل مطية، ففي هذا الكلام قدم وصفاً على صبرهم وحياتهم ومعيشتهم وكل ذلك بالتلميح فلو صرح بالتفصيل لأحتاج إلى كلام أكثر لتوفر المعاني المختزلة في هذه العبارات.

وفي نصٍّ آخر: " **باع أعرابّي غلاماً له فَجُعلَ سَقَّاء، فلقيه الأعرابيّ فقال له: كيف حالُك؟ قالَ: أنا في سفر لا يَنْقضي، وغَديرٍ لا يَنْزَح، وقومٍ لا يَرْووْن**"(١٨).

الغلام أراد في جوابه أن يعبر عن مشقته وأنه غير مرتاح في عيشه، وأن عمله متعب، فلجأ إلى التلميح في كلامه ولم يصرح مباشرةً بما يريد قوله لأنه وجد به ما يستطيع أن يصف حالته، ويصل إلى كل ما يريد أن يقوله بصورة أدق وأوضح فقد أجاب بقوله (أنا في سفر لا ينقضي) أي أنا أتجول باستمرار دون انقطاع، وقوله (غدير لا ينزح) أي أنه دائماً يحمل الماء، وقولهِ (قوم لا يروون) أي إن الناس من حولي يطلبون ماء كثيراً، لكنه لا يقصد هذه المعاني الظاهرة، وإنما أراد أن يقول إني متعب فلا أجد للراحة وقتاً من كثرة العمل ومشقته فعبر بأنه دائم السفر، والماء لا ينضب والقوم لا يروون، وهنا يفترض بالمتلقي البحث وراء المعاني التي تقع خلف هذه المعاني الظاهرة وربطها بظروف الخطاب ليصل إلى ما يقصده، وهذا يحدث سريعاً لأن المرسل على علم أن لدى المتلقي معلومات سابقة تمكنه من فهم مقصده، وفي هذا الكلام نجد خرقاً القاعدة الثانية وهي الكيف إذ إنه يحتاج إلى الدليل ليبين صحة كلامه لأن كلامه مخالف للواقع وأقرب للخيال لكن عمد لهذا الخرق لأنه يختزل كل معاناته ويصورها بأدق تصوير مما يخلق صورة واضحة في ذهن المتلقي.

٣) خرق قاعدة العلاقة أو الملائمة:

هذه القاعدة تتطلب أن يكون الخطاب ذا صلة، وموافقاً للكلام الذي قبله، وتعد هذه القاعدة من أساسيات فهم الخطاب فـ"هي بمثابة حدّ مقصدي الهدف منها منع المتكلم من أن ينزلق إلى مقاصد أخرى مخالفة لتلك التي استهدفها الخطاب، أي يراعي علاقة المقال بالمقام[١٩]، وعند خرق هذه القاعدة يحيل مرسل الخطاب المتكلم إلى أمور أخرى، فقاعدة الملاءمة "أداة يستعملها المستمع لتأويل أقوال لا علاقة ظاهرة لها مع ما قيل من خلال التبادل"[٢٠]، وقد ورد هذا الخرق في كلام الأعراب كثيراً ومن ذلك الخطاب الآتي عن أحدهم: "**قال: خرجتُ في نشدان ضالَّة لي، فأواني المبيتُ إلى خيمة أعرابي، فقلت: هل من قِرًى؟ فقال لي: انزل! فنزلتُ، فثنى لي وسادةً وأقبل عليَّ يُحدِّثُني، ثمَّ أتاني بِقِرًى فأكلت**"[٢١].

الأعرابيّ في هذا الحوار أجاب عن السؤال وإجابته لا تتناسب ولا تنسجم مع السؤال، حيث أجابه بصيغة الأمر (انزل)، والمفترض أن يجيب بنعم أو لا، لكنه خرج عن مبادئ الخطاب، وخرق القاعدة ليظهر أمراً وجد أن التلميح له أدق وأجدى في إيصال الفكرة إلى المتلقي، فبقوله أنزل أراد أن يقول للسائل إني مستعد لضيافتك، ولك ما طلبت، وأقدم ذلك بصدر رحب، وعلى أحسن وجه، فإن السائل عندما نزل قدم له كل ما يحتاجه وما يتطلب كأنه يقول لك ما طلبت وزيادة ولا يكون قرانا هكذا، وإنما بالنزول والترحاب.

وفي نصّ آخر: " **قيل لأعرابي في الشتاء: أما تصلّي؟ قال: البردُ شديدٌ وما علَّي كسوةٌ أصلي فيها**"[٢٢].

أراد الأعرابيّ من جوابه هذا الذي خرق به قاعدة العلاقة، وقطع العلاقة بين جوابه، والسؤال الموجه إليه أن يصل إلى غاية من أنه محتاج إلى كسوة أي ملابس كي يتدفأ به من البرد الشديد الذي منعه من القيام للصلاة، فلو أجاب بـ(لا اصلي لأن البرد شديد) لم يصل إلى مطلبه، وهو إعلام المتلقي بأنه محتاج إلى ما يُدفئه من البرد حيث إنه عجز عن الصلاة بسبب ذلك، فالتلميح هنا أدق وأبلغ في تبليغ رسالة مرسل الخطاب.

وفي نصٍّ آخر: " **قيل لأعرابي: ما يمنعك أن تَغزو؟ قال: والله إني لأبغضُ الموتَ على فراشي، فكيف أمضي إليه رَكْضاً**"[٢٣]

أجاب الأعرابيّ بجواب لا يمت بصلة للسؤال، ولا ينسجم معه، فقد قطع العلاقة بين السؤال وجوابه، وذلك ليبين أنه لا يذهب إلى الغزو بسبب الخوف من الموت، لكنه لم يجب بطريقة مباشرة، والأحرى أن يقول يمنعني من الغزو الخوف من الموت، وقد أجاب عن طريق التلميح في قوله (إني لأبغض الموت على فراشي فكيف أمضي إليه ركضاً)، فقد أوصل فكرة من أنه شديد الخوف من الموت، فهو يخاف من الموت، وهو في فراشه، ويرى أنه لو ذهب إلى الغزو فقد قدم نفسه إلى الموت وهذا الأمر يخيفه ولا يريد أن يحصل له.

وفي نصّ آخر: " **سارَّ رجلٌ أعرابيًّا بحديثٍ فقال له: أفهمت؟ قال: بل نَسيت!**"[٢٤].

فالأعرابيّ هنا أجاب بقوله نسيت، وفيه خرق لمبدأ العلاقة، ولا شك في ذلك، لأنه أراد أن يقول إنه حافظ للسر، وكتوم لدرجة أنه نسى ما قاله، وليس المقصود أنه نسى بالفعل، وأنما القصد هو المعنى الضمني الذي

تحمله هذه العبارة، وهو حفظ السر، وكتمانه، والمحافظة عليه، وأيضاً هنا وردت أداة أدت معنىً عرفيّاً، وهي (بل).

وخرق أعرابّي آخر أيضاً هذه القاعدة في جوابه "**قيل لأعرابّي أتحنُّ إلى الحاضرة؟ فقال: الباديةُ أفسح، والجسمُ فيها أصَحّ**"(٢٥).

فنلحظ أن أجابته لا علاقة لها بالسؤال فالسائل سأل عن الحاضرة والأعرابيّ أجاب عن البادية، والظاهر من كلامه أنه أراد أن يبين أنه لا يحن للحاضرة لأنه يجد الراحة في البادية، وفي جوابه هذا لجأ إلى التلميح من خلال خرق القاعدة الثالثة.

٤) انتهاك مبدأ الطريقة :

فيه يتطلب وفق هذا المبدأ أن يكون الخطاب واضحاً بعيداً عن اللبس والإبهام، والغموض، وعدم الترتيب، ولا يكون الخطاب مملاً بالإطالة، ولا إيجاز مخل (٢٦)، لكن في بعض الأحيان يقوم مرسل الخطاب بخرق هذه القاعدة لغاية ما أو تجنب امر ما، فليلجأ إلى الخرق، ومن أمثلة الخرق في كلام الأعراب، زيادة الألفاظ وعدم إجمال المعاني في ألفاظ أقل، بل يعمد مرسل الخطاب إلى زيادة في الألفاظ للإشارة إلى معنى ما أو لتقوية المعنى المراد وتأكيده (٢٧)، ومن ذلك قول أعرابي حين سأله أحدهم عن عمله وهل يستحي منه "**قيل لأعرابي يَنسِجُ: ألا تستحي أن تكونَ نسَّاجاً فقال: إنما أستحي من أن أكون أخرق لا أنفع أهلي**"(٢٨)، يلاحظ أن الأعرابيّ فصل في الخطاب بزيادة ألفاظ إلى جوابه الذي كان يفترض وفق قواعد التأدب أن يجيب بـ (لا أستحي) لكن هذه الزيادة، والتفصيل لم تأت عبثاً، وإنما جاء بها لإيصال رسالة ألا وهي أن العمل أي كان لا يستحي صاحبه منه، وأنما يستحي الذي لا عمل له وفائدة منه، فهو اتخذ آلية الخرق في استعمال الاستراتيجية التلميحية لينقل المتلقي من المعنى الظاهر إلى المعنى الضمني أو المستلزم.

وفي نصٍّ آخر "**قيل لأعرابّي: إنكم لتكثرونَ الرّحْل والتَّحوُّلَ وتهجرون الأوطان، فقال: إنَّ الوطن ليس بأبٍ والدٍ ولا أُمٍ مُرْضع، فأيُّ بلدٍ فيه عيشُك، وحَسُنتْ فيه حالُك، وكَثُرَ فيه دينارُكَ ودِرْهَمُك، فاحطُطْ به رَحْلَك، فهو وطَنُك وأبوكَ وأُمُّكَ ورَحْلُك**"(٢٩).

الأعرابيّ هنا أطال إجابته وأعطى معلومات كثيرة وكان من الأفضل لو أجمل إجابته بأنهم يحلون اينما توفرت لهم ظروف العيش من عمل أو ما شابه من الماء الأرض الخصبة لكنه خرق القاعدة وقدم أكثر من ذلك ولعله بذلك أراد أن يوصل للمتلقي ليس فقط لماذا يكثرون الرَحال وإنما ماذا يعني لهم الوطن.

وقد يخرق المتكلم مبدأ الطريقة في موضع يحتاج إلى تفصيل وإعطاء ألفاظ أكثر لكن مرسل الخطاب يلجأ للأجمال واستعمال التلميح كما في قول أعرابي قيل له "**كيف ترى شيخوخَتك من شَبابك؟ قال: كما ترى عمارتَكَ من خَرابِكَ**"(٣٠).

قد أجمل الأعرابيّ كل الفروقات والتغيرات التي تحدث بين عمر الشباب وعمر المشيب بعبارة (كما ترى عمارتك من خَرابك)، فقد وجد بهذه العبارة جمع لكل ما يلزم قوله، فقد شبه الشباب بالعمار أي الشخص العامر السليم القوي وشبه المشيب بالخراب أي عندما ينحل الجسم لسبب من الأسباب وذلك ليصل إلى المتلقي معنى مستلزم الا وهو أن المشيب يفتك بكل ما هو قوي وصحيح فأختار الإجمال، لأنه وجد من التمليح أفضل طريقة لإيصال المعنى المراد، في حين يتطلب السؤال معلومات اكثر لكن الأعرابيّ خرق القاعدة الرابعة وأجاب بالإجمال.

وأعرابّي آخر يخترق قاعدة الطريقة ويجيب بجواب مبهم يعتريه الغموض كما ورد: "**قيلَ لأعرابّي: ما أعددتَ لحالَيْ فقرك والغَنى؟ قال: الذي أعددتُه لحفظِ الغنى هو الذي أعددتُه لصرف الفقر**"(٣١).

فنلحظ من إجابة الأعرابيّ أنه أعدَّ شيئاً ما أو خطط لشيء ما، لكنه لم يفصح عنه وأكتفى بالتلميح الوجيز، فلم يقدم معلومات يفهم من خلالها السامع أو المتلقي ما هو الذي أعده فقد كانت إجابته غامضة، ويلتبس فهمها من قبل متلقي الخطاب.

وفي نصٍّ آخر "**قيل لأعرابّي أسرع في مسيرِه: كيف كان مسيرُك؟ قال كنت آكل الوَجْبَة، وأعرِّسُ إذا أسحرت، وأرتحل إذا أسفرت وأسير الوَضْع، وأجتنب الملع* فجئتكم لمسيَ سَبْع**"(٣٢).

كلام الأعرابيّ في هذا الخطاب فيه الكثير من الغموض وبذلك خرق بها القاعدة الرابعة من قواعد مبدأ التعاون، ولعله أراد أن يبين مدى سرعته في حين سألوه عن مسِيره، فلو أجاب بـ (كان مسيري سريعاً للغاية) لكان أوجز لكنه اسهب وجعل جوابه غامضاً ويحتاج إلى التغيير.

وقال أعرابّي آخر حيث سؤل عن البرد "**كيف البردُ عندكم؟ قال: ذَاكّ إلى الرِّيح**"(٣٣).

فقد أجمل الأعرابيّ ولم يقدم المعان التي تكفي للإجابة على سؤال السائل وإنما اكتفى بعبارة (ذاك إلى الرِّيح) فقد خرق قاعدة الطريقة وإجابته كانت غامضة ويعتريها اللبس، فقد اكتفى بالتلميح ويريد أن يقول أن البرد متروك أمره إلى الريح، وأيضاً يشوب الجواب اللبس وعدم الوضوح.

وأعرابّي آخر ذُكر أنه "**قيل: كيف ليلكم؟ قال: سَحَرٌ كلهٌ**"(٣٤).

إجابة الأعرابيّ تُلمح إلى أن الليل عندهم جميل وقد يكون جميل بالنسبة لحالات الطقس التي يتميز بها وقت السحر، أو لربما إنهم يستأنسون بالليل كما يستأنس الصائمون في وقت السحر بالدعاء والصلاة والتهجد إلى الرب، لكن الأعرابيّ لم يقدم أيّ معلومات إضافية مما يعتري الإجابة الغموض.

المصادر

[١] نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، صلاح إسماعيل: ١٦.

[٢] فهم انحراف بنية الاستفهام في ((البيان والتبيين)) في ضوء نظرية الاستلزام الحواري، أحمد رسن صحن، مجلة دراسات البصرة، العدد ٢٤، ٢٠١٧: ١٥٥.

[٣] ينظر: الاستلزام الحواري في سورة البقرة في القرآن الكريم (دراسة وصفية تحليلية تداولية)، حجر نورمان وحيدة، :٤٤-٤٥.

[٤] ينظر: نظرية التلويح الحواري، هشام خليفة: ٤٦.

[٥] زهر الآداب وثمر الألباب، الحصري القيرواني: ٧٢٤/٢.

[٦] البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي: ١٤٦/٨.

[٧] العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي:٤٧٧/٢.

[٨] البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي:١٨٣/٥.

[٩] البيان والتبيين، الجاحظ: ٢٣١/٣.

* تُظَالَمُ: تناطح، ينظر: المعجم الوسيط، مجموعة مؤلفين: ٥٧٧.

[١٠] البيان والتبيين، الجاحظ: ١٦٠/١.

[١١] التذكرة الحمدونية، ابن حمدون: ٢٩٥/٨.

[١٢] ينظر: تداولية الخطاب الديني في كتاب التوحيد للشيخ الصدوق، محمد صادق الاسدي: ١٣٢.

[١٣] ينظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني، العياشي ادراوي: ١٠٠.

[١٤] ينظر: تداولية الخطاب الديني في كتاب التوحيد للشيخ الصدوق، محمد صادق الاسدي: ١٢٣-١٢٥.

[١٥] البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي:٨٦/٣.

[١٦] عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري: ١٨٢/٢.

[١٧] ربيع الأبرار ونصوص الاخبار، الزمخشري:١٧٦/١.

[١٨] البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي: ١٧١/٨.

[١٩] الاستلزام الحواري في التداول اللساني، العياشي أدوري: ٩٩-١٠٠.

[٢٠] مدخل إلى دراسة التداولية، فرانثيسكويوس راموس: ٩٣.

[٢١] مصارع العشاق، السراج القاري: ٣٤٧.

[٢٢] التذكرة الحمدونية، أبن حمدون: ١٠٢/٤.

[٢٣] العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي:٤٢٨/٣.

[٢٤] البيان والتبين، الجاحظ:٣١٣/٢.

[٢٥] البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي: ١٧٧/٧.

[٢٦] ينظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني، العياشي ادواري: ١٠٠.

[٢٧] ينظر: جواهر البلاغة في المعاني البيان والبديع، احمد الهاشمي: ٢٣٤.

[٢٨] التذكرة الحمدونية، ابن حمدون: ٢١٩/٧.

[٢٩] البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي: ٢٤٦/٤.

[٣٠] البصائر والذخائر، ابو حيان التوحيدي: ٢٢٦/٣.

[٣١] البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي: ١٢١/٣.

* الملع: سير خفيف؛ ينظر: حاشية البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي: ١٥٠/٢.

[٣٢] المصدر نفسه: ٢/١٥٠.

[٣٣] البيان والتبيين، الجاحظ: ٣/٢٣١.

[٣٤] المصدر نفسه: ٣/٢٣١.